العودة المتخيلة ـ ضفاف المستقبل

خالد فرّاج

عن فرح وعن الفرح

كان ذلك في شتاء سنة ٢٠٠٢ الذي حمل معه كثيراً من الذكريات القاسية والسعيدة في آن؛ ففي تلك السنة اجتاحت دبابات شارون مدن الضفة الغربية وعاثت فيها دماراً وخراباً، في عملية سُمّيت "السور الواقي"، وهو ما يحيل إلى عقلية الغيتوات الراسخة لدى حكومات الاحتلال المتعاقبة. وكان مبرر العدوان الردّ على العمليات الفلسطينية التي هي في الواقع دفاع عن النفس أمام بطش الآلة الاحتلالية وتغوّلها.

كنت شاهداً على حجم الدمار الهائل الذي خلّفه هذا الاجتياح في مدينة رام الله. وأذكر أنه في اليوم الأول للاجتياح، اقتحمت إحدى الفرق الإسرائيلية منزل شقيقي عبد الرازق في حي الماصيون في المدينة، ومع أنه وعائلته لم يكونوا موجودين، إلاّ إن المنزل جرى تدميره (بعد أقل من عشرة أيام اعتُقل شقيقي في مكان آخر من ضواحي المدينة).

لم يستهدف هذا الاجتياح المقاتلين الفلسطينيين الذين حاولوا بإمكانات متواضعة صدّ هذا الاجتياح وإعاقته، وإنما استهدف بالدرجة الأولى تقويض مكانة السلطة الفلسطينية، وعزل قيادتها وقيادة منظمة التحرير وإنهاء مرحلة برمّتها. ومن المعلوم أن الدبابات الإسرائيلية ضربت حصاراً مشدداً على مقر المقاطعة (مقر الرئاسة الفلسطينية) حيث كان يقيم الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، واستمر هذا الطوق ـ وإن بشكل متقطع لبعض الفترات ـ حتى استشهاد ياسر عرفات في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤.

واستهدف الاجتياح أيضاً البنية الثقافية والفنية والمدنية للبلد؛ إذ كيف يمكن تفسير اقتحام الدبابات والجنود مكتب الشاعر الراحل محمود درويش في مركز خليل السكاكيني وسط المدينة، أو استهداف وزارة الثقافة واحتلالها بالكامل طوال أيام الاجتياح التي تجاوزت الشهر؟

انتهى الاجتياح في نهاية نيسان/أبريل، لكن واقعاً جديداً كان قد فُرض على الضفة الغربية، فحواه أن السلطة الفلسطينية باتت منهارة فعلياً بعدما تمركزت دبابات شارون

على بعد بضعة أمتار من مقر الرئيس ياسر عرفات، وأن السلطة الفعلية أصبحت بيد ضباط الجيش الإسرائيلي، ليس أمنياً فقط، بل في القضايا ذات الطابع المدني أيضاً بعدما أصبح كل شيء يحتاج إلى تصريح ممّا يسمى الإدارة المدنية التي يديرها ضباط الجيش، في تناقض واضح بين اسم هذه الإدارة وفعلها.

وفي أثناء بحثنا عن مساحة للحياة والفرح بدأتُ، مع شريكتي، محاولة تحديد موعد للزفاف؛ كان ذلك يتطلب ساعات من التفكير ارتباطاً بأيام حظر التجول وشبكة الحواجز والطرق المغلقة بسواتر من الكونكريت والتراب في محاولة لخنق المدينة، وتجنباً لأي طوارىء، وخشية من تشديد حظر التجوال بحيث لا تستطيع العروس اجتياز الحاجز المؤدي إلى رام الله، أو خشية من أي حاجز طيار يحول دون الزفاف. كتبنا على بطاقة الدعوة ـ وهذه حالة نادرة بصورة عامة ـ "للتأكد من موعد الزواج يُرجى الاتصال على ...."، ووضعنا أرقام هواتفنا الخليوية، وكان الهدف من هذا الإجراء الاحتياطي إمكان تأجيل موعد الزفاف بحسب تطورات الوضع الأمني.

وماذا عن مشاركة شقيقي عبد الرازق الذي حُوّل إلى الاعتقال الإداري لمدة ستة أشهر؟ فموعد الإفراج عنه كان في الثامن من تشرين الأول/أكتوبر. وجدت طريقة لسؤاله، فكان جوابه: أتمنى لكما كل الفرح والسعادة، إنه يا أخي موعد افتراضي، وعلينا أن ننتزع الفرح من بؤس الواقع وقيوده ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

في الواقع المأسوي الذي يعيشه شعبنا كانت مشاركة الشقيق في فرحنا تعني أن نتزوج في الأشهر الأخيره من سنة ٢٠٠٦، وهو الذي أمضى في قيد هذا الاعتقال التعسفي المستورد من أكثر الأنظمة استبداداً وظلامية ٥٢ شهراً، وهنا يدور الحديث عن قانون طوارىء بريطاني استُخدم في فلسطين خلال الانتداب البريطاني (١٩١٧ ـ ١٩٤٨).

أخيراً، حددنا الموعد في السابع من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢؛ قطعت زوجتي ناي القادمة من مدينة الناصرة (نحو ساعتَي سفر) حاجز قلندية مشياً على الأقدام، إذ يحظر على السيارات الدخول إلى المدينة عبر هذا الحاجز، وخصوصاً تلك التي تحمل لوحات تسجيل إسرائيلية؛ فالعروس التي ترتدي فستانها الأبيض دخلت مشياً على الأقدام إلى أرض امتلأت ببقايا الإطارات المحترقة وقنابل الغاز والرصاص الحي والمطاطي والحجارة وبقايا الزجاجات الحارقة. انطلق موكب العروس المؤلف من عدة سيارات تحمل شارات صحافة وتلفزيون، ذلك بأن مجموعة من أصدقائي العاملين في الصحافة تطوعوا لمهمة إدخال العروس، وسط منع التجول وانتشار الدوريات والجنود في الطرقات، إلى قاعة العرس.

وعلى الرغم من حظر التجول، وبالتالي احتمالات إطلاق الرصاص في اتجاه مَن يخرقه، فإننا احتفلنا مع مجموعة من الأصدقاء في إحدى القاعات الصغيرة في مدينة رام الله في ساعات ما بعد الظهر، لأن ساعات المساء كانت تحمل معها حضوراً أكبر لجيش الاحتلال، وتشديداً خانقاً لحظر التجوال.

في ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ أنجبت زوجتي ابنتنا البكر؛ لم يكن من السهل عليّ

الوصول إلى مدينة الناصرة، فأنا بحاجة إلى تصريح من سلطات الاحتلال (لم أحصل عليه يوماً)، ولهذا ساعدني بعض الأصدقاء بطرق ملتوية لتجاوز الحواجز. وصلت متأخراً ساعتين على الإنجاب، فالرحلة لم تكن سهلة، وكان القلق إزاء مصادفة تحرمني ربما لشهور من اللحظة الأروع والأجمل في حياتي، هو سيد الموقف. انطلقنا مع صديقة وصديق لي من رام الله المحاصرة إلى الناصرة عبر كثير من الطرق الملتوية والحواجز المنتشرة، والحيل والنكات المفبركة التي انطلت على الجنود المنتشرين على الحواجز.

تداولنا، ناي وأنا، في اسم المولودة الجديدة، وكانت الاقتراحات بين اسمَي زينة وفرح. وفي تلك الأثناء اتصل بي شقيقي من سجنه في صحراء النقب ليهنئنا بالمولودة الجديدة، فسألته عن رأيه في الاسم، فأجاب مازحاً: فرح، لأننا من أكثر شعوب العالم حاجة إلى الفرح، كواحدة من الوسائل التي تمكّننا من الاستمرار والصمود.

كبرت فرح

في المخيم في أثناء طفولتي التي لا تشبه على الإطلاق الطفوله الحقيقية، كان يتردد على مسامعنا كثير من المصطلحات التي لم أكن على دراية بها، مثل: مفتاح العودة؛ حق العودة؛ أسماء عشرات القرى المدمرة التي لجأ أهلها إلى المخيم؛ مصطلحات أُخرى من نوع: حلم العودة، والبيارات والقصور والمزارع وشواطىء الساحل الفلسطيني والتراب الفلسطيني؛ أسماء المخيمات في الداخل وفي الشتات؛ فلسطين قضية العرب الأولى؛ شعارات الوحدة طريق العودة أو العودة طريق الوحدة؛ عملية مطار اللد؛ عملية الشهيدة دلال المغربي؛ اجتياح لبنان وحصار بيروت ومجزرة صبرا وشاتيلا. كبرت وأنا أراقب وأحفظ الشعارات الجدارية المكتوبة بخط جميل أحياناً، وبخطوط رديئة في أغلب الأحيان، عن المقاومة وفلسطين والعودة؛ كبرت ورسخ في عقلي أن العودة، عدا كونها حقاً سياسياً وأخلاقياً، هي أيضاً حق فردي لكل من هُجّر وأصبح لاجئاً.

تباعاً أخذت هذه المصطلحات تشكّل وعيي وتبلوره تجاه مصيبتنا الكبرى (النكبة)؛ أصبحت أدرك أن المخيم ليس المكان الأمثل للحياة؛ إنه واحد من أبرز تجليات النكبة.

عندما كبرت ابنتي فرح كنت دائماً أسألها: من أين أنت؟ إجاباتها كانت ملتبسة، وليس كغيرها من الأطفال: أنا من رام الله والناصرة واللد، من رام الله حيث أقطن، ومن الناصرة حيث ولدت، أمّا اللد فكانت من ذكريات الطفولة الراسخة من زيارات نادرة لمدينة منشأ عائلة والدها. في الواقع أنا امتداد طبيعي لعائلة لجأت ـ بالمعنى الفعلي ـ أمّا زوجتي فامتداد لعائلة لم تُهجّر وبقيت في مدينتها، وبالتالي لا ينطبق عليها مصطلح لاجئة.

أنا ابن الجيل الثاني للنكبة، ومعرفتي باللد نظرية مجردة أكثر من كونها ملموسة، وقد أغنيتها بكثير من الأدبيات والقصص الشفهية من هنا وهناك، ليس بالضرورة من عائلتي، فوالدي رحل وكان لي من العمر عامين فقط، أمّا والدتي فعلى قطيعة مقصودة مع ذاكرة النكبة: في اللحظة التي يُطلب منها الحديث عمّا جرى في تموز/يوليو ١٩٤٨، تدّعي النسيان

وترفض الحديث مطلقاً، مع أنها غادرت المدينة مشياً على الأقدام إلى قرية نعلين المجاورة والتي تقع على خط الهدنة، وكانت حينها قد تجاوزت الاثني عشر عاماً. وفي لحظات قليلة جداً ونادرة، كانت أمي تتحدث باقتضاب عن شدة الحر في أثناء الهروب من القصف والقنص والمجزرة الشهيرة، وعن الجثث الملقاة على قارعة الطرق وعن العطش، وفي تلك المرات النادرة كان وجهها يحمرّ ويتعرق خجلاً وقلقاً وخوفاً.

"أولاد الغيتو"

تعرفت إلى اللد من رواية "أولاد الغيتو" للصديق الروائي اللبناني الياس خوري، الذي عرف اللد عن ظهر قلب من دون أن تطأ قدماه المدينة؛ عرفها وعرف تاريخها ومبانيها وأديرتها ومساجدها؛ عرف بأدق التفصيلات ماذا جرى في ١١ تموز/يوليو ١٩٤٨ في مسجد دهمش؛ يروي الحكاية كأنه أحد الناجين من المجزرة..

أكثر ما شدني في الرواية ما جاء على على لسان أحد الناجين من المجزرة البشعة: "هل سمعت بجيش احتلال يمنع ضحاياه من البكاء؟ نحن مُنعنا من البكاء، وحين لا يعود باستطاعتك أن تبكي خوفاً من أن تُقتل، يصير الكلام بلا معنى!!!" (ص ٣٨٣).

وفي سنة ٢٠١٧ نظمت مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومؤسسة عبد المحسن قطان ندوة تكريمية للراحل الفنان إسماعيل شموط، كان أحد المشاركين فيها الياس خوري، وكانت مداخلته بعنوان "العطش"، تحدث فيها عن رحلة الموت والعطش التي عاناها سكان اللد المطرودون من منازلهم تحت القصف والقتل، مشيراً إلى أن شموط لوّن بأعماله الفنية الرائعة الخروج الذي يدمي القلوب.

يكتب خوري عن مسيرة شموط وعن الغيتو: "إسماعيل شموط لم يبقَ في الغيتو، بل مشى في مسيرة التيه والذل، حيث مشى عشرات الألوف من سكان المدينة واللاجئين إليها تحت الرصاص، وفي تلك المسيرة الرهيبة، مات مَن مات وهو ينحني على عطشه، أمّا الذين نجوا فحملوا معهم ذاكرة العطش إلى جميع الينابيع التي نضبت في أرض العرب."

مرة أُخرى فاجأني الياس بمدى إلمامه بتفصيلات ما جرى، ومرة أُخرى أتعرّف منه أكثر وبأدق التفاصيل، إلى واحدة من أبشع جرائم التطهير العرقي التي ارتُكبت، فكل الشكر للصديق الياس خوري الذي ساهم في تصويب معرفتي عن مدينتي.

حلمي بالعودة

بعيداً عمّا تعلمته عن العمل السياسي من أكثر من مصدر، أو من جداريات المخيم، أو من المخيمات الصيفية، أو من أفراد عائلتي الذين كثيراً ما تمسكوا بالعودة أو برمزيتها، فإن العودة بالنسبة إليّ لا تزال حقاً أخلاقياً وإنسانياً، ولا يهمني بأي أدوات أو بأي شكل ستتم فيه، كما أنه لا يشغلني سؤال إلى أين سأعود، إلى اللد أو إلى يافا، أو أنني سأبقى في رام الله،

أو سأنتقل للعيش في أي مكان في هذا العالم الصغير، ما يهمني هو أن أمتلك الحق في العودة، وبالتالي العيش والإقامة حيث أشاء في العالم أو في فلسطين التي لا تحتاج إلى تعريف لحدودها الجغرافية لأنها واضحة تماماً، على الرغم من الالتباسات التي غلّفت، في ربع القرن الأخير، تعريف فلسطين جغرافياً.

فعلاً، إن الكلام يصبح بلا معنى حين تتحدث عن فاشية تواجهها محاولة لتعلم الحياة والفرح وسط أنياب الجرافات والدبابات، لكن الكلام الذي له معنى هو أن فرح تماماً، كابنتي الثانية، يارا، وهما من أبناء الجيل الثالث للنكبة، تصرّان على أنهما من اللد. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تحولات المجتمع الفلسطيني منذ سنة ١٩٤٨
جدلية الفقدان وتحديات البقاء

مجدي المالكي (مؤلف ومحرر رئيسي)
حسن لدادوة (مؤلف ومحرر مشارك)

٦٠٠ صفحة ٢٠ دولاراً